الباب الاول

الفصل الأول

أفريقيـــــــة

مقدمة :

أطلق العرب اسم أفريقية على الأقطار الواقعة شمالى هذه القارة دون مصر ، وكانوا يقسمونها إلى ثلاثة أقسام : المغرب الأقصى ويمتد من المحيط الأطلسى إلى مدينة تلمسان ، الثانى المغرب الأدنى ويمتد من مدينة وهران إلى حدود الجزائر شرقا ، الثالث أفريقية وتمتد من حدود الجزائر غربا إلى حدود مصر الغربية شرقا

فتوحات العرب فى أفريقية :

سارت الجيوش العربية بقيادة عمرو بن العاص بعد أن تم له فتح مصر إلى غزو برقة فى سنة ٢١ هـ وكانت تخضع لحكم الروم وحارب سكان تلك البلاد وتغلب عليهم ، وتصالح الفريقان على أن تدفع برقة الجزية ثم تقدمت إلى طرابلس وحاصرتها نحو شهر واستولت عليها بعد أن هرب سكانها إلى سفن الروم الراسية فى البحر ، وبعد ذلك بخمس سنوات أى فى ٢٦ هـ فى خلافة عثمان بن عفان تجدد نشاط المسلمين فى تلك الأصقاع وأرادوا إتمام إخضاعها والتوغل فى داخليتها ،

obeikandl.com

وسار عبد الله بن سعد والى مصر إذ ذاك ومعه عقبة بن نافع الفهرى على رأس قوة كبيرة لمحاربة الروم الذين اجتمعوا فى جيش كبير بقيادة جريجورى لإخراج العرب من برقة وطرابلس ، والتحم الفريقان فى حروب دموية انتهت بقتل القائد الرومى وانتصار العرب وفرضت الجزية ، وأنشأ الوالى حامية فى برقة وأخرى فى زويلة وعاد إلى مصر يصحبه التوفيق فيما أراده

وقعت الحروب الأهلية فى الخلافة العربية بعد مقتل عثمان وعمت البلاد الثورات ، فانتهز الروم تلك الفرصة واستعادوا برقة وطرابلس وساروا على خطتهم القديمة فاستعبدوا الأهالى وأثقلوا كاهلهم بشتى الضرائب وأمعنوا فى السلب والنهب فاستاء الأهالى استياء شديدا ، وفضلوا حكم العرب ذلك الحكم الذى امتاز بنشر العدل والمساواة بين طبقات السكان ، والرفق بالرعية والمعاملة الحسنة وانتظروا عودتهم بفارغ الصبر

انقضت الحروب الأهلية بتأسيس الدولة الأموية واستقر الأمر والسلطان لمعاوية بن أبى سفيان فاستأنف سياسة الغزو والفتح ونشر مبادىء الإسلام ، وانتهز فرصة دعوة سكان أفريقية للعمل على خلاصهم من حكم الروم الجائر ، وأرسل أحد قواده المسمى معاوية بن حديج سنة ٤٥ هـ فى عشرة آلاف مقاتل لمحاربة الروم ، فتقدم بجيشه وقاتل الروم وهزمهم ، وتقدم عبد الله بن الزبير إلى مدينة سوسة واستولى عليها ، وفتح عبد الملك بن مروان حصن جالولا ، وخضعت البلاد مرة أخرى إلى لحكم العرب

ولاية عقبة بن نافع :

عين معاوية فى سنة ٥١ هـ عقبة بن نافع واليًا على أفريقية كان

قائدا قديرا ، فخرج من دمشق ومعه عشرة آلاف مقاتل من العرب ووصل بهم إلى برقة ، ومن هناك توغل فى شمالى أفريقية ، وزحف غربا حتى وصل إلى سواحل المحيط الأطلسى ، ورأى أن يبنى حصنا ليكون مركزا لحركاته الحربية فبنى مدينة القيروان ليصد منها هجمات البربر من جهة البر والروم من جهة البحر ، وفى سنة ٥٥ هـ عزم على تأديب الروم الذين كانوا يكثرون من الاغارات على حاميات العرب وأملاكهم ، فتقدم بجيشه نحو مراكش واكتسح كل ما قابله من المدن واستولى على الحصون وهزم الروم هزيمة منكرة ، وواصل زحفه حتى وصل إلى المحيط الأطلسى ، وكان من نتائج هذه الحملة التأديبية الموفقة أن استراح العرب سنين عديدة من اقلاق البربر والروم لهم باغاراتهم المتكررة وقد ظل عقبة بن نافع حاكما على أفريقية حتى قتل فى سنة ٦٥ هـ وهو يدافع عن مدينة القيروان التى هاجمتها جموع من البربر الذين اندفعوا نحوها من سهول جبال الأطلس ووديانها لاخراج العرب من بلادهم لا لظلم وقع عليهم بل لأنهم قوم اعتادوا الحرب والطعان وعدم الخضوع لرياسة منظمة مدة طويلة ، وقد دافع العرب على قلة عددهم عن حصنهم دفاع المستميت وسقط قائدهم فى ساحة الوغى وسقط معه كثير من رجاله ، واستولى البربر على القيروان وارتدت البقية الباقية من العرب نحو الشرق فارين إلى مصر ، وكادت أفريقية تفلت من حكم المسلمين .

عبد الملك بن مروان واستعداده لفتح أفريقية :

تولى عبد الملك بن مروان أمر الخلافة وتأهب لاستعادة فتح أفريقية وجهز جيشا كبيرا وعهد بقيادته إلى زهير بن قيس . وأمره بالزحف اليها فنفذ زهير أمر الخليفة وخرج بجيشه فى سنة ٦٩ هـ (٦٩٣ م) وحارب البربر وحلفاءهم من الروم

وانتصر عليهم وأجلاهم عن ولاية برقة ، ولكنه ارتكب خطأ حربيا بعد ذلك إذ فرق جنوده فى أنحاء تلك البلاد الشاسعة لاتمام اخضاعها واحتفظ بفرقة صغيرة من الجند معه وانتهز الأعداء تلك الفرصة الذهبية وهاجموا قائد المسلمين وحاربوه وقتلوه وقضوا على من كان معه من الجند ، وخرجت أفريقية من حوزة المسلمين مرة أخرى

غضب عبد الملك لخبر تلك الهزيمة وفى سنة ٧٤ هـ (٦٩٨) م أمر حسان ابن النعمان عامله على مصر أن يخرج إلى أفريقية و يحارب الروم وحلفاءهم من البربر . ويعمل على استعادة تلك الأقطار ، فخرج حسان وحارب الروم وحلفاءهم وانتصر عليهم واستولى على القيروان وحاصر مدينة قرطاجنة واستولى عليها وأرجع للمسلمين هيمنتهم بعد أن طرد الروم من تلك البلاد التى خضعت من برقة إلى المحيط إلى سلطان الخلفية الأموى

الكاهنة :

ظهرت امرأة فى شمال أفريقية فى تلك الآونة اشتهرت بالسحر وعرفت بالكاهنة. وكانت قادرة فالتف حولها البربر واعتقدوا فيها اعتقادا غريبا وخضعت لها قبيلة زناته التى انتسبت اليها ، وحذت القبائل الأخرى حذوها فازداد نفوذها وعظم شأنها . ولما آنست من نفسها القوة على مناهضة سلطان المسلمين جمعت الجيوش ورفعت راية العصيان ، وزحفت على جند العرب وهزمتهم هزيمة منكرة وطردتهم إلى برقة وأصبحت سيدة البلاد بعد نصرها المبين ، وظلت كذلك نحو خمس سنوات وفى سنة ٦٩ هـ أرسل عبد الملك جيشا لامداد حسان فاستأنف القائد زحفه غربا لمقاتلة جيوش الكاهنة فلم تقو تلك الساحرة على إيقاف زحف جيوش

المسلمين ، وارتدت نحو الجنوب بعد أن خربت المدائن والقرى وهدمت القصور وأتلفت المزارع والبساتين فتحولت المروج العامرة إلى صحراء جرداء، وقد ظنت تلك المرأة أنها بعملها هذا قد نجت من الخطر وأوقفت سير الجيوش الظافرة ، ولكنها أخطأت إذ أساءت تقدير القوة المعنوية العظيمة التى تحلى بها جند المسلمين وامتازوا بها فى صدر العصور الأسلامية الأولى . كما أنها أثارت غضب البربر فاستقبلوا حسانا بالابتهاج وهرعوا إليه يقدمون فروض الطاعة والاستسلام ، وتقدم حسان بجيشه يطارد الكاهنة حتى أدركها عند جبل أوراس من جبال الأطلس وحارب قواتها وتغلب عليها وقتلها بعد معركة عنيفة، ورجع البربر إلى حظيرة حكم المسلمين بعد أن تعهدوا بامداد جيش حسان بخمسة وعشرين ألف فارس

انتشر الاسلام بعد ذلك فى شمال افريقية انتشارا سريعا واعتنقه البربر ، وفى تلك الفترة هاجر كثير من الخوارج من فارس وبلاد العرب واستوطنوا بلاد البربر ولقنوهم الاسلام على حسب مبادئهم الثورية و بثوا فيهم روح الكراهية لبنى أمية وحكومتهم فى دمشق ، فنشأ البربر يكرهون الأمويين و ينتصرون لأهل الشيعة مما كان له أثر فى الحوادث السياسية التى مرت بنا فى تاريخ الدولة الفاطمية وغيرها من الدول الاسلامية التى قامت فى تلك الاقطار مما سنبينه بعد

ظل حسان واليا على أفريقية حتى عزله الوليد بن عبد الملك فى سنة ٨٩ هـ وعين مكانه موسى بن نصير .

ولاية موسى بن نصير :

كان نصير والد موسى من كبار رجال الدولة الاموية فى زمن معاوية إذ كان صاحب الشرطة فى دمشق عاصمة الامويين ، وقد اشتهر بالوفاء والاقدام ونشأ

موسى بين أحضان والده وتربى تربية عسكرية وسياسية فنشأ قائدا قديرا وسياسيا محنكا ، فلما أوفده الوليد بن عبد الملك واليا على أفريقية أدار تلك البلاد بحزم وهزم ، وقابل الصعوبات التى اعترضته بهمة الرجل المقدام ، إذ انتهز البربر فرصة انسحاب حسان من البلاد ورفعوا راية العصيان فى وجه الادارة الاسلامية ، فنهض موسى يعاونه أولاده ، وقمع الفتن وقضى على الاضطرابات وعاقب الثوار من البربر وطرد الروم الذين دفعوهم إلى الثورة من أفريقية ، ثم صالح الزعماء وعاملهم بالحسنى ، وفرق رجاله بين القبائل المختلفة ليعلموا أهلها الاسلام ، وأخذ رهائن من قبائل مصمودة وصنهاجة وكتامة وهوارة ، وتقدم نحو طنجه وحاصرها وفتحها واعتنق أهلها الاسلام ووضع بها حامية كبيرة تحت إمرة أحد قواده الامناء من البربر وهو طارق بن زياد

التفت موسى بعد ذلك للقضاء على معاقل الروم الاخرى فى البحر الابيض المتوسط إذ كانت عشا للدسائس ، ومركزاً لتدبير الحركات الحربية والاغارات العسكرية على أملاك المسلمين ، فجهز أسطولا لقتالهم وأرسل الحملة بقيادة ابنه عبدالله ، ونجح المسلمون فى الاستيلاء على جزيرة ميورقة ومينورقة وايفيقية وضمها إلى الأمبراطورية الاسلامية ، واتسعت أملاك موسى فى الغرب حتى أصبحت تضارع فى اتساعها أملاك الحجاج فى الشرق ، ولكنه امتاز بحسن ادارته وقيادته ، وخضعت أفريقية خضوعا اختياريا لحكم موسى وامتد نفوذه من حدود مصر الغربية إلى سواحل المحيط الأطلسى ما عدا مقاطعة سبتة (سوته) التى يحكمها أمير قوطى اسمه الكنت يوليان

تمتعت أفريقية بنعمة العدل والحرية تحت حكم المسلمين واختفت من بين طبقاتها الفوارق الاجتماعية ، وأصبح البربر بفضل الاسلام اخوانا مع الغزاة من

العرب يقفون معهم على قدم المساواة لا فرق بين حاكم ومحكوم ، وتكونت من الفريقين جبهة عسكرية واحدة تترقب الفرصة لأعلاء كلمة الدين ونشر مبادئه القويمة بين الأمم المجاورة ، وكانت أقرب أمة تجاورهم فى ذلك الوقت هى الأمة الاسبانية وكانت تئن من حكم القوط الجائر فانتهز العرب تلك الفرصة الذهبية وقفزوا على أسبانيا وفتحوها واليك البيان

الفصل الثانى

أسبانيا

١ — القوط فى اسبانيا:

عرف الفنيقيون أسبانيا قبل التاريخ الميلادى بعدة قرون واختلط تجارهم بأهلها الذين كانوا يعرفون بالاباريين ، وأقاموا فى أرضها مدائن ذات أسواق تجارية ، وأنشأوا على شواطئها نزلات بحرية اشتهرت منها قادس ، وكانوا يعيشون مع قبائلها فى صفاء ووداد ، وقد أثروا بحضارتهم فى أهل اسبانيا إلى حد كبير فتعلم الاسبانيون منهم فنونهم ولغتهم وتخلقوا بأخلاقهم واعتنقوا مذاهبهم الدينية ، وفى القرن الخامس قبل الميلاد ازداد نفوذ القرطاجيين وورثوا أملاك الفنيقين فى البحر الابيض واحتلوا نزلاتهم فى اسبانيا ، وأنشأوا نزلات جديدة منها برشلونه وقرطاجة وغيرها ، ثم حدث نزاع طويل بين القرطاجيين ورومية وقامت بينهم حروب شعواء عرفت بالحروب البونية وانتهت بفوز رومية وتخريب قرطاجة ، وانتزع الرومان أملاكها فى أسبانيا وحكموها فى سنة ١٣٤ قبل الميلاد فأصبحت اسبانيا من ذلك العهد ولاية رومانية تخضع وتسير على نظمها الاجتماعية وسننها القانونية

كانت حكومة رومية فى أول أمرها حكومة فنية فاستطاعت أن تبسط نفوذها وترفع لواءها على ربوع أوربا وأفريقية ، وعينت الحكام والولاة على مختلف الاقطار والامصار ، وراقبتهم مراقبة دقيقة وحاسبتهم حسابا عسيراً على كل ما كان

يقع منهم من المخالفات ، وسارت الأمور فى الامبراطورية الرومانية على خير منوال حتى القرن الثالث بعد الميلاد. ثم انقسمت الامبراطورية إلى قسمين: القسم الشرقى وكانت مدينة القسطنطينية عاصمة له، والقسم الغربى وظلت رومية عاصمة له ، و بعد ذلك أدركها الهرم ودخلت فى دور شيخوختها بسبب انغماس أباطرتها فى أنواع الترف والملاذ ؛ واختلت الادارة المركزية واعتلت الرأس فسرى الاضمحلال ثم الانحلال فى أنحاء جسم الدولة ؛ وانتهزت الأمم المتبربرة التى كانت تعيش على حدودها الشمالية من الغرب والشرق تلك الفرصة الذهبية وأغارت على أطرافها وانتزعت منها أملاكها الواحدة تلو الأخرى ، فأغار الافرنج على الأقاليم التى سميت فرنسا وأقاموا لأنفسهم حكومه منظمة ، وفى سنه ٤٠٦ م اخترقت جبال البرانس بعض تلك القبائل المتبربرة ونزلت بأرض أسبانيا، واحتل السلافيون الشمال واحتل الفندال الجنوب وظلوا بها نحو نصف قرن، ثم طغت موجة أخرى من أمواج الغزو على أسبانيا ، إذ تغلب الفرنج فى جنوب فرنسا على قبائل القوط الغربيين وطردوهم نحو الجنوب ، فاخترقوا بدورهم البرانس ونزلوا على أسبانيا وحاربوا السلافيين وطردوهم الى شمال أفريقيه ، فاستوطنوا أقاليم المغرب الأقصى وامتزجوا بأهلها وصاهروهم وتناسلوا ، وتم الأمر للقوط فى أسبانيا واتخذوا مدينة طليطلة عاصمة لهم ودانت لهم البلاد وأسسوا بها حكومة قوية واعتنقوا المسيحية فى سنة ٥٨١ م

(٢) حكومة القوط :

سار القوط فى البلاد الأسبانية فى أول عهدهم سيرة الرومان الأولى فدانت لهم البلاد وخضعت لهم الرقاب ، ولكنهم ما لبثوا أن انغمسوا فى الترف والنعيم

وترفعوا عن الاختلاط بالرعية ، ونظروا للشعب نظرة ازدراء واحتقار فانحلت الروابط الاجتماعية فى أنحاء المملكة وانقسمت البلاد الى طبقة الحكام ، وهذه تنعمت بكل نعيم الحياة ، والى طبقة المحكومين وتلك أنّت من جراء الظلم وكل أنواع الاضطهادات السياسية والدينية ، وساد الفقر والجوع بين طبقات الشعب بسبب الضرائب الفادحة التى فرضها عليهم الأشراف وأمراء الاقطاعيات وكبار رجال الدين ، ومما زاد الطين بلة انقسام الامراء على أنفسهم ، فقامت المنازعات وعمت البلاد الحروب الأهليه والفتن الداخلية ، وانقسمت الأهالى إلى أحزاب وشيع وهجرت الصناعة والزراعة ، ووقفت حال التجارة فازدادت الحالة الاقتصادية تحرجا

اليهود فى أسبانيا :

ولما افتقر أمراء الاقطاعيات بسبب حروبهم الفردية التفتوا إلى يهود أسبانيا وكانوا قد استوطنوا تلك البلاد منذ زمن بعيد واثروا بفضل جدهم ونشاطهم اثراء كبيرا ونهبوا متاجرهم وسلبوهم نقودهم ومتاعهم ، وتدخل رجال الدين من النصارى فى أمر دينهم وأجبروهم على التنصر فثاروا ضد هذا الظلم الصارخ فاخمدت ثورتهم بكل قسوة وسفكت دماؤهم وصودرت أملاكهم وهتكت أعراضهم

كان من نتائج هذه الفوضى السياسية والاجتماعية وذلك البؤس والاضطهاد الشامل أن هجر البلاد الاسبانية كثيرون من أهلها نصارى ويهود وقصدوا شمال أفريقية ليتمتعوا بمزايا الحكم الاسلامى الذى اشتهر أمره وينعموا بنعم العدل والمساواة والتسامح الدينى وهى الصفات التى امتاز بها حكم العرب إذ ذاك

العرش القوطى قبيل الفتح العربى :

جلس على العرش القوطى فى اسبانيا فى أوائل القرن الثامن الميلادى الملك وتيزا (٧٠١ — ٧١٠ م) ويعرف بين مؤرخى العرب بالملك غيطشة وقد سار فى حكمه سيرة رديئة ، إذ استسلم إلى نفوذ رجال الدين وتركهم يديرون البلاد ويضطهدون الرعية بكل أنواع الاضطهادات وفى أثناء حكمه هدم جميع القلاع والحصون التى كانت معاقل للأمراء وذلك رغبة منه فى التغلب على هؤلاء الأمراء عند ثوراتهم ضد العرش ، فخلت المدن والأقاليم من الحصون التى تحمى قلب المملكه عند الغزو الأجنبى ، فكان ذلك من الأمور التى عاونت الغزاة من العرب وهم يفتحون تلك الأقاليم

غضب الأهلون على الملك وتيزا فى أواخر أيامه وحرض الأمراء أفراد الشعب فثار فى وجه مليكه ، ولما مات وتيزا ترك ولدين قاصرين فاجتمع بعض الأمراء وانتخبوا رودريك (لذريق) وهو أحد أمراء القوط الكبار ملكا على أسبانيا ، فلم يدم له الملك غير ثمانية عشر شهراً إذ تهيأت الفرص واجتمعت الأسباب لدى موسى بن نصير لفتح اسبانيا ، فلم يدع الفرصة تفلت من يديه ، وشمر عن ساعد الجد وأمر قائده القدير طارقا بن زياد وكان قد عهد اليه فى قيادة الحامية بطنجه أن يغزو أسبانيا ففعل ، وكان التوفيق رائده

العوامل المباشرة التى ساعدت الفتح العربى :

أولا : انحلال الجبهة العسكرية التى كانت تدافع عن البلاد ضد الغزو الأجنبى ونشأ ذلك عن النزاع الذى قام بين الأمراء والملك رودريق بسبب اغتصابه

العرش من أولاد الملك المتوفى ، فان هؤلاء الأبنـاء التجئوا إلى أنصار أبيهم وتحالفوا على العصيان والثورة ، وآزرهم عمهم المسمى أوباش وكان أسقفا لطليطلة وإشبيلية وراعيا للكنيسة المسيحية فكان نفوذه كبيرا

ثانيا : حقد الكونت يوليان حاكم سبته (كيوتا) فى شمال أفريقية على الملك رودريك «وكان يوليان شديد البأس وافر القوة كثير الأتباع والانصار يقبض على مفتاح الجزيرة بحكمه لسبته والمضيق» وقد نشأ هذا الحقد (أولا) بسبب اعتداء الملك رودريك على عفاف ابنة الكونت المسماة فلورندا ، وكان أبوها قد أرسلها إلى البلاط القوطى لتنشأ نشأة اجتماعية راقية وكان تلك عادة كبراء القوم فى تربية أبنائهم وبناتهم (وثانيا) بسبب التنافس بين الكونت والملك إذ كان الكونت صهراً للملك المتوفى وبطبيعة الحال كان يعطف على أولاد صهره ويحقد على رودريك لاغتصابه العرش فأصبح ملكا وكان بالأمس أميراً مثله لا يزيد عنه فى الجاه والبأس

أراد يوليان الانتقام من رودريك فتقرب من موسى بن نصير واختلط به بحكم الجوار وراسله وقابله، وفى رسائله ومقابلاته عين لحاكم أفريقية مواضع الضعف من أمته . ووصف له جزيل خيراتها ووفرة غناها ، وحرضه على غزو أسبانيا ظناً منه أن العرب سيقتصرون على كسب الغنائم ومجد الفتح

ثالثا : ثبوت قدم العرب فى شمال أفريقية ونجاحهم بفضل إدارة موسى الرشيدة فى القضاء على عناصر الاضطراب فى تلك الأصقاع والتفاف البربر حولهم ودخول جندهم فى صفوف الجيوش الاسلامية، وكانوا جنداً أشداء امتازوا بالشجاعة والاقدام والتفانى فى خدمة الاسلام ونشر مبادئه ورفع لوائه بين الأمم النصرانية .

رابعا : معرفة العرب فى شمال أفريقية أحوال أسبانيا من عسكرية واجتماعية

وجغرافية معرفة تامة بسبب اختلاطهم بالأقوام الذين هاجروا إلى بلاد الغرب فارين من أسبانيا بسبب الاضطهادات التى أشرنا إليها سابقا ، فان هؤلاء الأقوام وبخاصة اليهود منهم تطوعوا فى ركاب الجيش الفاتح فكانوا خير المرشدين والادلاء لقواد العرب وهم يزحفون على أسبانيا وأقاليمها

الفتح

فى شهر رجب سنة ٩٢ هـ ابريل سنة ٧١١ م جهز موسى بن نصير جيشا اختلف المؤرخون فى تقديره اختلافا كبيرا فمنهم من قال انه سبعة آلاف ومنهم من قال انه اثنا عشر ألفا ، وأمر مولاه طارق بن زياد قائد الجند بطنجة أن يسير لفتح بلاد الأندلس بعد أن اقتنع بالظروف الملائمة للفتح وذلك بعد أن خاضها بالسرايا طوعا لأمر أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، فأنه أرسل طريف بن مالك من جند البربر فى رمضان من سنة ٩١ هـ فى مائة فارس وأربعمائة راجل لغزو بلاد الشاطىء الجنوبى من الأندلس ، فجازوا البحر فى السفائن وغزوا بعض الثغور الجنوبية بمعونة يوليان ، ونزلوا بأرض الأندلس وأصابوا سبيا لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسنا ، وغنموا مالا جسيما وأمتعة كثيرة

أبحر طارق من طنجه ومر بسبته ، ومن هذه إلى الشاطىء المقابل ومعه يوليان يرشده ونزل هو ورجاله بجزيرة صغيرة عرفت فيما بعد بالجزيرة الخضراء ، واستولى المسلمون على جبل مجاور لها وتحصنوا فيه فسمى أولا جبل الفتح ، ثم أخذ اسم الفاتح فسمى جبل طارق ، ويقال إن طارقا بعد أن عبرت جنوده المضيق أحرق السفائن كى يقطع من عساكره أمل التقهقر ، وأن يختاروا إما الفوز وإما الموت ، وهى رواية تحتاج إلى شىء كثير من التمحيص اذ لم ترد فى أقوال الثقاة من المؤرخين ، ثم انساب جند المسلمين فى أرض الأندلس ، وأسرع الكونت تدمير عامل لزريق

على تلك الأقاليم لملاقاة العرب ، ولكنه فزع عند ما رأى الغزاة وكتب إلى الملك يخبره بخبرهم، وكان رودريك إذ ذاك مشتغلا بالحرب فى المقاطعات الشمالية فأمر أحد قواده بالزحف لملاقاة العدو وتمزيق شمله، فهزمه طارق ومضى فى فتوحاته ناشرا لواء الفزع والرعب فى أفئدة الأهلين المأخوذين من هجوم ما كانوا يتوقعونه ، فجمع رودريك جيشاً بالغ الرواة فى ذكر عدده وزحف جنوبا لملاقاة طارق ، والتقى الجيشان على شواطىء وادى لكه بالقرب من مدينة شذونة القديمة التى بنى فى محلها الآن مدينة شريش

معركة شريش الحاسمة

« على قيد فرسخين من قادس تجاه بلدة شريش على ضفاف نهر وادى لكه تلاقى العرب والقوط ، أو تلاقى الاسلام والنصرانية وذلك لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٩٢ هـ »

اصطف المسلمون والكثير منهم يمتطى متون الخيل عليهم الزرد وفوق رؤوسهم العمائم البيض ، و بأيديهم القسى العربية، وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح والاتحاد ملء أفئدتهم والحماسة تغلى فى صدورهم وكلهم اخلاص لقائدهم الاكبر طارق يرمون إلى غرض واحد ، إما الفوز و إما الموت فى سبيل رفع لواء الاسلام و إعلاء كلمة الدين الحنيف

والقوط بين مشاة وفرسان معتدون بالدروع والدرق والحراب والفؤوس والمناجل والمقاليع قلوبهم شتى

وقبل اشتباك الطرفين خطب طارق يحرض جنده فقال « أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر —

الخ ما جاء بتلك الخطبة النفيسة التى ان دلت على شىء فقد دلت على ايمان القائد بالنصر والاستماتة فى مهاجمة العدو وحض الجند على اتباع الاقدام ، وهى تدل على المثل الأعلى لموقف القيادة والحماس الحربى (فلم يك موقف قيصر فى ألمانيا أو بونابرت فى إيطاليا ومصر بأدعى للأعجاب من موقف طارق فى سهل شريش) إذا اشتملت على الترغيب والترهيب و بث الأمل فى النفوس والرغبة فى نيل الأجر الدنيوي والأخروى معا ، وتذكير الجيوش النصر على العدو بأسلوب يدل على رسوخ ملكة البيان فى القواد وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجند

فلما سمع الجند كلام قائدهم الباسل ثارت حميتهم ووطدوا نفوسهم على الموت فى قتال عدوهم ، وكان جيش طارق يظهر أنه كثير العدد إذ قسمه إلى طوائف ليلقى الرعب فى قلوب أهل الأندلس وانضم اليه يهود اسبانيا والنصارى

التحم الجيشان ووقعت معركة هائلة دامت ثلاثة أيام على قول بعض المؤرخين وسبعة على قول البعض الآخر، واستمال فى أثنائها يوليان وأو باش أسقف طليطلة وأخ الملك و يتزا كثيرا من جند النصرانيين ، و بذرا فى الجيش بذور الشقاق والتفرق ، وأخذ كل أمير يسعى فى سلامة نفسه، فدارت الدائرة على جيش رودريك ، وقد أختلف المؤرخون فى كيفية موته فمنهم من قال إنه قتل فى أثناء المعركة والذى قتله هو طارق ، ومنهم من قال إنه غرق فى مياه الوادى الكبير وهو يحاول الفرار

نتائج المعركة

تشتت شمل الجيش القوطى بعد المعركة وساد الرعب فى قلوب الأهلين وذاعت أنباء النصر فى طنجة وسبته وما جاورها، فاندفع إلى الجيش العربى سيل من المغامرين من العرب والبربر فازداد قوة ومنعة ، وزحف على البلاد يفتحها وعلى

القلاع والحصون يهاجمها و يستولى عليها عنوة الواحدة تلو الأخرى

سار طارق بعد الموقعة إلى مدينة شدونة فاستولى عليها بعد حصار شديد ثم زحف على قرمونه فاستولى عليها وفرض الجزية على أشبيلية ، ثم انتهى إلى مدينة استجه حيث التقى بفلول القوط . فاقتتل الفريقان قتالا شديدا ، وانتصر طارق ثم قسم جيشه إلى ثلاث فرق الأولى تحت أمرة مغيث الرومى ووجهه إلى قرطبة والثانية يرأسها زيد بن قاصد وسيرها إلى مالقة ، ورأس هو الثالثة وتوجه بها إلى طليطلة من طريق جيان واحتلها بلاقتال ، وأصدر أوامر صريحة تمنع الجند من النهب والاعتداء وتهدىء روع الأهالين ، وتخول لهم الحرية فى دينهم والتمتع بأموالهم والتقاضى عند قضاتهم على شرط أن يدفعوا الجزية فى كل سنة . و بعد أن وطد دعائم السلام فى طليطلة اتجه نحو الشمال فوصل إلى وادى الحجارة وعبره. ثم إلى جبال وادى رامه فاخترقها من فج سمى باسمه. ثم استولى على مدينة سالم وهى التى أحرز منها على مايروى المائدة المشهورة المنسوبة إلى سليمان ، وعاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم ثم عهد بادارة المدينة إلى أو باش ، و بعد قليل استأنف زحفه إلى الشمال وغزا قشتالة وليون ، ثم عبر جبال استورقة إلى سواحل خليج غسقونية فكانت نهاية فتوحاته ، ووصله أمر موسى بالعودة إلى طليطلة وكان ذلك لعام من اقتحامه للمضيق

طارق وموسى

رأى موسى ان الوقت قد حان للاشتراك مع قائده القدير فى اتمام فتح الأندلس فكتب إلى طارق ألا يتقدم و يتوغل فى بلاد القوط قبل أن يلحق به ، و يقال إنه توعده بالعقاب الشديد لأنه خالف أوامره بعد موقعة شريش وتقدم وزحف وفتح

ما فتح ولكن الثقاة من المؤرخين لا يسردون تلك الروايات التى ان دلت على شيء فانها لا تدل إلا على ضعة النفس ومواطن الحسد والغيرة فى قلوب أبطال المسلمين مما ننزههم عن الاتصاف بها ، وهم هؤلاء الرجال الذين اتصفوا بنبيل الخلق وكامل الرجولة وانكار الذات فى سبيل اعلاء كلمة الدين ، ولذلك يجب أن نقابل كل ما كتب فى هذا الصدد بغاية الحذر وتمام الحيطة

أقام موسى ابنه عبد الله فى مدينة القيروان وأعد جيشاً بلغ عدده ثمانية عشر ألفاً من العرب والبربر ، وسار به من أفريقية إلى الأندلس فى شهر رجب سنة ٩٣ هـ (ابريل سنة ٧١٢ م) وعبر البحر ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله يوليان فى شهر رمضان من السنة عينها ، ثم زحف على مدينة شدونة واستولى عليها وتقدم منها إلى قرمونة ، ودخلها ثم مضى إلى اشبيلية ، وحاصرها ، وكانت إذ ذاك من أعظم مدائن الأندلس شأنا وفتحها بعد حصار شهر ، ثم فتح مدنا أخرى بين النهر الكبير ونهر تاجه ، ثم زحف على ماردة وكانت قوية الحصون متينة الأسوار فقاومته مقاومة عنيفة ولكنه تغلب عليها وفتحها فى شهر شوال سنة ٩٣ هـ بعد أن وصله مدد من أفريقية بقيادة ابنه عبد العزيز ، وقد عامل أهلها معاملة قاسيه بسبب عنادهم فانه فرض عليهم جزية سنوية وأخذ أموال القتلى وأموال النازحين عن المدينة ، وطلب أن تسلم إليه أموال الكنائس وحليها وأن يحول نصفها إلى مساجد ، وأن يأخذ رهائن من أشراف القوط .

سار موسى بعد ذلك الى طليطلة وأسرع طارق لملاقاته ، وتقابل القائدان فى طلبيرة ، ويقال إن موسى أنب طارقا و بالغ فى إهانته لمخالفته أوامره وعزله من قيادة جيشه وحبسه ، وعهد بالقيادة إلى مغيث الرومى ، ولكنه اعتذر ودافع عن

طارق دفاعا مجيدا فأرجع طارق إلى القيادة وتصالح القائدان [1] واتجه طارق نحو الشرق صاعداً الى منابع نهر التاجه ، واتجه موسى نحو الشمال الغربى وأخضع مدنا كثيرة منها سلمنقة ثم عاد الى الشرق سائرا مع مجرى نهر دورو ، وتقابل ثانية مع طارق خارج مدينة سرقسطة ، وساعده فى حصارها واستوليا على المدينة ثم احتلا وشقة وطركونة ولا ردة ، ثم افترق القائدان ، فمشى موسى على شاطىء البحر الأبيض المتوسط متجها نحو الشمال ، ففتح برشلونة وجيرونة وغيرها من المدائن .

أما طارق فانه اتجه نحو الجنوب وفتح طرطوشة و بلنسية وشاطبة ودانية ، واستمر حتى وصل إلى حدود أمارة تدمير، وكان عبد العزيز بن موسى قد استولى على أريولة عاصمة تلك الولاية بعد أن عقد معاهدة مع الكونت تدمير دلت على اعتدال السياسة العربية ولينها كما أنها دلت على تقدم فن الدبلوماسية عند هؤلاء الفتاح العظام

موسى فى جنوب فرنسا :

ترك موسى طارقا يفتح المدائن والأقاليم فى جليقية ، وزحف على رأس جيش كامل العدة قوى العزيمة واخترق جبال البرانس ونزل فى أرض فرنسا ، واستولى على ولاية لنجدوك ، وكانت من الولايات التابعة لحكومة القوط قبل سقوطها وهنا فكر القائد الجرىء فى غزو جميع أوربا والوصول إلى الشام عن طريق القسطنطينية، ولو ترك وشأنه لاستطاع تنفيذ عزمه مكللا بالنجاح إذ كانت ممالك أوربا وأماراتها إذ ذاك غاية فى الضعف مفككة العري لا تربطها وحدة سياسية ولاتجمعها جامعة دينية ، ولكن الوليد بن عبد الملك تردد فى تأييد ذلكم الفاتح

(١) وهذه رواية أيضا يجب أن تقابل بشىء كثير من الحيطة والحذر

وأمره بعدم المجازفة بجند المسلمين فى أقطار وفياق يجهلها كل الجهل فعدل عن مشروعه ورجع الى أسبانيا ليتمم اخضاع المعاقل الجبلية حيث اعتصم المسيحيون الذين فروا أمام موجة الفتح واجتمعوا تحت راية زعيم منهم يسمى بلايو فدخل جليقية واستولى على حصونها وطرد النصارى وطاردهم حتى جبال استورقة الصخرية فى أقصى الشمال وكان يفكر فى سحق أعدائه سحقاً تاماً لولا أن أتاه رسول من قبل الخليفة يستدعيه وطارقا الى عاصمة الخلافة

استدعاء موسى وطارق :

كان استدعاء موسى إلى دمشق قبل أن يتمم سحق النصارى الذين اجتمعوا تحت راية بلايو فرصة ذهبية لهؤلاء النصارى إذ تمكنوا من جمع شتاتهم واتخذوا تلك المعاقل الحصينة موطنا لهم وهناك ترقبوا الفرص للأغارة على أملاك المسلمين وانتزاعها منهم والعمل على توسيع رقعة أملاكهم وظلوا يكدون ويجتهدون على مر الايام حتى نجحوا واستردوا أسبانيا وطردوا المسلمين إلى أفريقية بعد أن مكثوا بها نحو ثمانية قرون كما سنبينه بعد

نظم موسى حكومة أسبانيا قبل أن يترك البلاد فعين ابنه عبد العزيز نائبا عنه واختار مدينة أشبيلية مقراً للملك لقربها من البحر وترك ابنه الثانى عبد الله وكان قائداً قديراً حاكما على أفريقية وابنه الأصغر عبد الملك واليا على المغرب الأقصى ، وترك آخر من رجاله قائداً للأسطول وعهد اليه بادارة السواحل واتخذ مدينة طنجة مقراً له ، ثم رحل الى دمشق فى حاشية كبيرة مثقلا بالغنائم والنفائس وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٩٥ هـ ، سنة ٧١٤ م

سقوط موسى وطارق

اختلف المؤرخون اختلافا بينا فيما آلت إليه حال القائدين الكبيرين

موسى وطارق بعد تركهما أسبانيا ، ويروى الكثير منهم روايات هى أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ، فمنهم من قال إن طارقا وكبير قواده مغيثاً الرومى كتبا إلى الوليد يشكوان أمرهما من جراء المعاملة القاسية التى لقياها على يد موسى . وينسبون استدعاء موسى إلى دمشق بسبب غضب الخليفة عليه . ومنهم من قال إن الوليد مات قبل أن يصل موسى وقواده إلى دار الخلافة وأمره الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك بالتريث فى دخول العاصمة ، والانتظار فى طبرية فلسطين فلم يطع الأمر فحقد سليمان عليه ، ولما حضر مجلسه عنفه وعزله وعاقبه وسجنه وجرده من أملاكه ، وساءت أيامه الأخيرة حتى مات فى وادى القرى سنة ٩٧ للهجرة (٧١٦ م) وهو فى حالة عوز و بؤس شديدين

أما نهاية طارق فمثلها مثل نهاية الكونت يوليان إذ يمر عليها المؤرخون بالسكون والصمت ولا يذكرون ما حدث له بدمشق ، ولذلك فاننا نجهل تماما ما حل بهما بعد عهدنا بهما فى اسبانيا ، وعلى كل حال فانه من المتفق عليه أن سليمان بن عبد الملك انتقم من موسى ومن ولده عبد العزيز ، إذ دس عليه من قتله فى أشبيلية وذلك خوفا منهما ومن نفوذهما فى أفريقية وفى أسبانيا ، ولأنهما كانا من أنصار الوليد سلفه . ويقال إنهما وافقا مع غيرهم من حكام الولايات والأقاليم أمثال الحجاج ومحمد بن القاسم على نقل ولاية العهد لابن الوليد بدلا من سليمان ، ومهما كانت الدوافع التى اجتمعت لدى الخليفة فانها لا تبرر القسوة التى استعملها مع فاتح الأندلس الذى يعد بحق من أكابر رجال التاريخ الاسلامى على الرغم من اتصافه بالحقد والحسد على ما رواه بعض المؤرخين

أثر الفتح العربى فى أسبانيا:

قال الاستاذ عبد الله عنان « قضى الفتح العربى على امتيازات الأشراف ،

وخفف من عبء الضرائب الذى كان يثقل كاهل الشعب ، وفرضها المسلمون بالمساواة والعدل على جميع العناصر والطوائف لافرق بين دين أو جنسية، وأمنوا السكان على أموالهم وعقائدهم ، وأباحوا لهم اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، واختيار حكامهم من بينهم ، وأخذوا بناصر الطبقات المستعبدة التى كانت إلى ذلك العهد فى أتعس حالات الذل والفاقة ، فعاد السكان إلى المدائن والقرى بعد التشتت فى الجبال والسهول ورحبوا بالنظام الجديد »

وقال الاستاذ لين بول « أنشأ العرب حكومه قرطبة التى كانت أعجوبة القرون الوسطى بينما كانت أوربا تتخبط فى ظلمات الجهل ، فلم يكن ثمة سوى المسلمين من أقام بها منار العلم والمدينة » .

الفصل الثالث

أسبانيا العربية بعد سقوط موسى:

قسم الفاتحون أسبانيا إلى عدة مقاطعات يدير شئون كل مقاطعة حاكم يختاره الأمير الذى يعينه حاكم أفريقية بتفويض من بلاط دمشق

وقد اشتملت المقاطعة الأولى على الأراضى الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط ونهر الوادى الكبير ، وكذلك الجزء الواقع بين ذلك النهر وبين وادى يانه ، واشتهر من مدنها الكبيرة قرطبة واشبيلية ومالقة وجيان .

أما المقاطعة الثانية فقد اشتملت على أواسط أسبانيا وعلى الجزء الواقع بين البحر الابيض المتوسط شرقا ، ونهر دورو شمالا ، وولاية البرتغال غربا ، واشتهر من مدنها طليطلة ووادى الحجارة وبلنسية ودانية وقرطاجنة ومرسية ولارقة .

أما المقاطعة الثالثة فقد اشتملت على جيليقية والبرتغال واشتهر من مدنها باجة ولشبونة واسترقة وسموره وسلمنقة

وقد امتدت المقاطعة الرابعة من شاطىء الدورو إلى جبال البرانس على شاطىء نهر الابرو واشتهر من مدنها سرقسطه وطرطوشة وطرقونه وبرشلونه وجيرونه وقسطيلة وغيرها .

ولما اتسع نطاق الفتوحات الاسلامية أنشئت مقاطعة أخرى فى منطقة البرانس واشتهر من مدنها أرجونه وطرطوشة وغيرهما

تفرقت القبائل العربية المختلفة فى هذه المقاطعات والمدائن ، فنزلت قبائل

حمص باشبيلية ، ونزلت قبائل دمشق بقرطبة ، وقبائل قنسرين بجيان ، وقبائل فلسطين بشدونه والجزيرة، ونزلت قبائل فارس واليمن بمدن رية وشريش وطليطلة وغرناطة وماردة وغيرها . ونزلت الحجاز بداخل الجزيرة

ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير فى أسبانيا :

كان موسى قبل الرحيل عن أسبانيا قد أقام ابنه عبد العزيز نائباً عنه فى فى إدارة الشئون فى أسبانيا. فأبدى عبدالعزيز همة فائقة فى ادارة الحكومة الجديدة واليه يرجع الفضل فى تنظيم أمورها، اذ أنشأ ديوانا لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها حتى توافق مشارب السكان ولتجمع كلمة القبائل ، وشجع الزواج بين الفاتحين والاسبان ، وتزوج هو بأرملة رودريك (أم عاصم) وشجع المهاجرين إلى البلاد الاسبانية ، فتوافد عليه المهاجرون من مصر والشام وفارس. فأحيوا فى الجزيرة موارد الصناعة والتجارة ، ولكنه قد قتل فى شوارع أشبيلية فى أواخر سنة ٩٥ هـ باغراء من سليمان بن عبد الملك إذ كان يخشى أن يجد فيه منافساً يسعى وراء الاستقلال لنفسه

الولاة فى أسبانيا بعد العزيز:

بعد قتل عبد العزيز أقام الجند فى أسبانيا أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير واليا على البلاد ، ولكنه لم يمكث أميراً إلا بضعة أشهر نقل فى أثنائها مقر الحكومة من أشبيلية إلى قرطبة ، وعزله حاكم أفريقية الذى كان من حقه أن يعين حاكم الأندلس ؛ ثم ولى مكانه آخر ، فكثرت الاضطرابات والفتن فى البلاد ، فعزله عمر بن عبد العزيز وولى مكانه السمح بن مالك الخولانى .

ولاية السمح بن مالك الخولانى :

قبض على أزمة الحكومة بنشاط وحزم ، وبادر الى اصلاح الخلل الذى سرى الى الادارة والجيش ، وابتنى قنطرة قرطبة الشهيرة ، ومسح أرض الجزيرة ، و بعد أن تم له تنظيم الأمور فكر فى غزو فرنسا فزحف على سبتمانيا و يروفانس ، وشتت شمل الثوار هناك ، ثم تقدم لمحاربة دوق أكوتين أقوى أمراء الافرنج إذ ذاك ، واستولى على بلاد كثيرة ، ثم زحف على تولوز (طالوشة) عاصمة الأمارة لمحاصرتها وفتحها . ولكن الدوق قابله ونشبت بين الفريقين معركة قتل فيها السمح فى شهر مايو سنة ٧٢٠ م وارتد المسلمون الى بروفانس

انتخب الجند بعد مقتل السمح عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى لتولى قيادة الجيش فلبث فى منصبه سنتين ، وقد وصف المورخون عبد الرحمن بالشجاعة والمهارة الفائقة والأمانة والعدل ، إذ أخمد الفتن التى كادت أن تمزق الجزيرة ، إلى أن قدم الحاكم الجديد فى صفر سنة ١٠٣ هـ وسنة ٧٢١ م

عنبسة بن سحيم الكلبى :

تولى إدارة الشئون بعد السمح ، واستأنف الفتوحات الاسلامية فى الشمال فزحف على لنجدوق (مقاطعة سبتمانيا) مرة أخرى . وفتح الحصون الشمالية . وقوى شوكة الاسلام فى جنوب فرنسا . ولكنه لسوء الحظ قتل سنة ١٠٧ هـ سنة ٧٢٦ م قتله جماعة من الثوار الفسقونيين فى إحدى مفاوز جبال البرانس . فعادت الاضطرابات الى الجزيرة . وتوقف الجيش عن الغزو وانسحب الى الداخل

الاضطرابات فى أسبانيا :

عمت الاضطرابات البلاد بعد قتل عنبسة ، واختلت الادارة الحكومية وقوي ساعد الثوار من النصارى الذين كانوا قد اجتمعوا تحت قيادة زعيم منهم يسمى بلايو ، واختلفت القبائل العربية ، وظهرت العصبيات القديمة ، وتمرد البربر ، وظلت الحال كذلك مدة خمس سنوات تولى فى أثنائها خمسة ولاة ، وأخيراعين الخليفة هشام بن عبد الملك فى سنة ٧٢٩ م عبد الرحمن الغافقى واليا على الأندلس .

عبد الرحمن الغافقى:

تولى عبد الرحمن الغافقى بلاد الأندلس للمرة الثانية بأمر من الخليفة هشام ابن عبد الملك سنة ١١٣هـ سنة ٧٢٩م ؛ و يعتبر عبد الرحمن أكبر حاكم وليها فى عهد الأمويين وأعظمهم اقداما وجرأة . إذ كان قائدا عظيما ومصلحاً كبيرا . فرحب المسلمون بتعيينه ، وأحبه الجند لعدله وكان عظيم الهيبة ، نافذ الكلمة فى جميع القبائل ؛ فتصالحت مضر وحمير . وساد الوئام فى الجيش ؛ وانتظمت أحوال الجند

بدأ عبد الرحمن ولايته بزيارة المقاطعات المختلفة ؛ فنظم شئونها ، وعهد بادارتها إلى الأكفاء ، وقمع الفتن ورد المظالم ، وأعاد إلى المسيحين معابدهم وأملاكهم المغتصبة ، وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالمساواة

وقضى صدر ولايته فى العناية باصلاح الخلل الذى تطرق إلى الادارة فى عهد سلافه ؛ ثم التفت إلى اصلاح الجيش ، وزاد فى عدده وأضاف إلى الصفوف فرقا من فرسان البربر باشراف ضباط من العرب أولى شجاعة وبأس ، و بالغ فى اتخاذ

التدابير لتحصين الجهات الشمالية .

عبد الرحمن فى فرنسا :

أخذ عبد الرحمن العدة لغزو فرنسا . ليثأر لقتل السمح بن مالك وارتداد المسلمين عند أسوار تولوز (طالوشه) ، وكان الحماس الدينى إذ ذاك عظيما ، فاحتشد المسلمون تحت إمرته للغزو والجهاد ، وكان أحد أمراء المسلمين فى الشمال المسمى عثمان بن أبى نسعة قد خرج عن ولائه للمسلمين وصاهر الدوق أكوتين بأن تزوج ابنته وتحالف معه ضد المسلمين

كانت فرنسا تنقسم حين قصدها عبد الرحمن إلى أقاليم منها :

(١) أقليم سبتمانيا فى الجنوب الشرقى وعاصمته نربونه . وكان قد دخل فى حوزة المسلمين من جبال البرانس إلى نهر الرون

(٢) أقليم أوكتانيا على شمال وغرب سبتمانيا ، يحده من الجنوب جبال البرانس ومن الشمال نهر اللوار ، ومن الشرق نهر الرون ، ومن الغرب المحيط الأطلسى وعاصمته تولوز

(٣) أقليم استرازيه فى شمال نهر اللوار وكان يحكم هذا الاقليم شارل (قارله) وكان بين هذا الأمير وأمير أوكتانيا نزاع وحسد

قلنا إن عثمان بن أبى نسعة كان قد تحالف مع الدوق أوكتين ضد المسلمين لكن عبد الرحمن الغافقى لم يسمح له أن يتمتع بذلك الحلف بل نهض لمحاربته ، وأرسل جيشا إلى جبال البرانس حيث كان يقيم الثائر الخائن مع زوجه ، فتغلب الجيش عليه وقتله ، وأخذ زوجه وأرسلها إلى بلاط دمشق حيث تزوجها أحد أبناء الخليفة (على ما يقال)

وهب الدوق أكوتين للأخذ بثأره ، ودخل أملاك المسلمين ودمر وخرب ، فزحف عبدالرحمن بنفسه لتأديبه ، ودخل أرض فرنسا فى فصل الربيع سنة ٧٣٢م ، وتقابل مع الدوق أكوتين على ضفاف الرون فانتصر عبد الرحمن ، واتجه بعدئذ إلى بوردو ، وأستولى عليها واخترق المسلمون أقليم برجونيا ، وخفق العلم الاسلامى فوق مدينة ليون وبيزنسون (مسقط رأس الشاعر فكتور هوجو) . وبعد أن حصنهما عبد الرحمن وترك فى كل منهما حامية قوية قرر الزحف على عاصمة الفرنجة .

قال ادوارد جبون : وامتد خط الظفر إلى ألف ميل من صخرة طارق إلى نهر اللوار ، وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل الجيش الاسلامى إلى حدود بولونيا شرقا ، وآكام اسكتلندا شمالا ، فليس الرين بأمنع من النيل أوالفرات ، وربما اخترق الأسطول العربى عباب التيمس بلامعركة بحربة ! بل وربما كانت تعاليم القرآن تدرس الآن فى كليات اكسفورد ، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة »

معركة تور أو بلاط الشهداء : (٧٣٢ — ٧٣٣ — م — ١١٤ — ١١٥ هـ)

أزعجت أخبار النصر الذى وفق إليه عبد الرحمن زعماء الأفرنج وأمراءهم وبعد أن اكتسح المسلمون مقاطعة أكوتين ، وشتتوا جيوشهم ، واستولوا على كثير من المعابد والمدائن لم يردوق أكوتين بدا من الاستنجاد بمنافسه شارل ابن بيبين محافظ القصر بباريس .

وقد كان شارل أقوى أمراء الأفرنج إذ ذاك ، وكان قد تغلب قبل ذلك على النوار فى ألمانيا وشمال فرنسا ، وقد كان نافذ الكلمة فى البلاط المير وفنجى (بلاط فرنسا) .

استنجد أمير اكوتين بشارل المذكور ، فلبى الدعوة إذ رأى فى تلبيتها تحقيقا لأطماعه من اغتصاب العرش الفرنسى ، والاستئثار بالسلطة والقضاء على منافسه ، فحشد جيشاً جرارا من الجند المرتزقة القاطنين على ضفاف الدانوب والألب ومن بين العشائر الجرمانية المتوحشة ، لمساعدة جنده من الأفرنج ، ثم زحف نحو الجنوب بين التلال والآكام لملاقاة العرب ؛ وكان الجيش الاسلامى فى تلك الآونة قد زحف على مدينة تور الواقعة على نهر اللوار واستولى عليها .

ولما اقترب شارل بجيشه ، ورأى عبد الرحمن أن جيوش الأفرنج تفوقه كثرة انقلب راجعا من ضفاف النهر إلى السهل الواقع بين مدينتى تور وبواتيه

حال الجيش الاسلامى قبل الموقعة :

غنم المسلمون غنائم لا تحصى باستيلائهم على أكواتين ، ويقال إنه كان من نصيب كل جندى من الذهب والزمرد والياقوت والسوسن ما كان ينوء بحمله . خلا طعامه وعدته التى كان يحارب بها ، وقد أحدثت هذه الغنائم فى صفوف المقاتلين اختلالا ، ودب الشقاق بين قبائل البربر إذ كانت تتوق إلى الانسحاب نحو الجنوب فارة بغنائمها ، وخشى عبد الرحمن أن تكون هذه الغنائم سببا فى تعطيل حركات الجيش وانشغال الجند ، فحاول أن يحملهم على ترك جزء منها ، ولكنه لم يشدد فى ذلك خيفة التمرد ..

حال جيش الأفرنج أيضاً :

وكان جيش شارل مؤلفا من فرسان كثيرة ومشاة يتشحون بجلود الدئاب وتنسدل شعورهم المتجعدة فوق أكتافهم

المعركة :

عبر شارل نهر اللوار ، وعسكر على قيد أميال من العرب ، وتحصن على ضفاف النهر ؛ ثم نشبت بين الجيشين معارك كثيرة صغيرة لمدة أيام ثمانية على قول بعض المؤرخين ، وفى اليوم التاسع ، حدثت بينهم معركة هائلة فتقاتلا حتى انسدال الظلام ، وفى اليوم التالى استأنفا القتال ، فضاعف المسلمون قواهم ، حتى ظهر الاضمحلال فى جيش الأفرنج وأصبح النصر من المسلمين قاب قوسين أو أدنى ، ولكن حدث حينذاك أن صاح فى المواقع الاسلامية صائح إن جند المسلمين وغنائمهم فى خطر عظيم ، فوقع الاختلا فى صفوف المسلمين وتواثبت الجند للدفاع عن غنائمهم . فحاول عبد الرحمن أن يعيد النظام ، وأن يهدىء من ثورة الجند فلم يفلح ، وأصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته ، فعم الاضطراب الجيش الاسلامى ، فانتهز الأفرنج هذه الفرصة ، وهجموا على المسلمين ، على أنهم قد رحبوا بقدوم الظلام ، وأوقفوا القتال عند انسداله

قام النزاع بين قواد الجيش العربى وضباطه بعد مقتل عبدالرحمن ، واختلفت القبائل وهاجت الخواطر ، فنبذ المسلمون فكرة النصر ، وعولوا على الانسحاب بأمن وسلام يحملون معهم غنائمهم ، وارتدوا إلى سبتمانيا فى ظلام الليل ، وفى فجر الغد أقلق شارل وحليفه الدوق اكوتين سكون المعسكرات الحربية ، فتقدما منها بحذر ، فألفياها خاوية إلا من بعض الجرحى الذين لم يستطيعوا مرافقة الجيش المنسحب ، فذبحوا على الأثر ، ولم يجرؤ شارل على مطاردة العرب بل ارتد بجنده شمالا

ويجمع مؤرخو الفرنج والنصرانية على أن مقتل عبد الرحمن فى صدر الموقعة

كان من أهم أسباب ارتداد العرب الذين بعد أن قتل قائدهم انسحبوا فى ظلام الليل دون أن يشعر بهم المسيحيون الذين كانوا يتوقعون هجومهم فى اليوم التالى وقد قتل كثيرون من المسلمين حال الارتداد : وقد وقعت الهزيمة بالمسلمين فى العام الخامس عشر بعد المائة من الهجرة . وكان من نتائج هذه المعركة أن سكن تيار الفتح الاسلامى فى فرنسا وباقى ممالك الشمال الأوربية .

يقول جبون :

« أنقذت موقعة تور أسلافنا البريطانيين وجيراننا الغاليين من نير القرآن المدنى والدينى ، واستبقت لرومية بهاءها وجلالها ، وأخرت استعباد القسطنطينية وشدت أزر النصرانية ، وأوقعت بأعدائها الفشل والتفرق »

ومما يؤخذ على مؤرخى العرب أنهم لم يحاولوا التعليق على أهمية الموقعة فاكتفى بعضهم بأن ذكرها فى بضع كلمات كما فعل المقرى وابن الأثير ، ولم يذكر عنها ابن خلدون شيئا أصلا

ويسمونها جميعا موقعة بلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها من عظماء المسلمين

أما أثرها فى اسبانيا الاسلامية فقد كان بعيدا ، إذ اضطربت البلاد وانتهز البربر هذه الفرصة وقاموا فى وجه الحكومة العربية الاسبانية. وقادهم مؤنس أحد أصحاب طارق بن زياد وأمدهم يوديس أمير أكوتين بجيوش أفرنجية

وترجع أسباب ثورتهم هذه أن العرب أجحفوا بحلفائهم البربر الذين أبلوا بلاء حسناً فى المواقع الحربية فى أثناء القتال ، وتحملوا عبأه بنفوس قوية وعزيمة

ثابتة ، ولكن لما تم الفتح وأراد الفريقان من عرب و بربر اقتسام البلاد والاستقرار فيها اعتبر العرب البربر فى منزلة تلى منزلتهم ، وجادوا عليهم بالأقاليم الجبلية الشمالية حيث تصعب المعيشة وحيث القتال كان أبداً متصلا بينهم و بين المسيحيين فى معاقلهم الجبلية كجبال ليون واستورقة وجيلقية ، وأقاموا أنفسهم فى أخصب البلاد وأجملها مما احتق البربر واستئثار حفيظتهم. ولم يكتف العرب بهذا بل كثيرا ما تدخلوا فيما بين البربر و بين المسيحيين ، فاذا ما فرضوا الجزية على النصارى تدخل العرب ومنعوهم من جمعها ، وأنزلوا بالمخالف شديد العقاب من سجن وجلد وتعذيب

ولحسن حظهم ثار فى ذلك الوقت إخوانهم فى شمال أفريقية ضد الحكم الاسلامى ، وذلك لما رأوه من عسف بعض الولاة العرب ، والبربر مجبولون على حب الحرية وكراهية الخضوع لحاكم قوى حازم شأنهم فى ذلك شأن العرب فى جاهليتهم ، ولما تغلب عليهم العرب بعد معارك دموية كما رأينا خضعوا على مضض ، وترقبوا الفرصة للقيام بالثورة لاسترداد حريتهم ، وقد سنحت لهم تلك الفرصة عند ما أرسل عبيد الله حاكم أفريقية حملة إلى جزيرة صقلية ، وفرض حاكم طنجة الجزية على من أسلم منهم ، فأجمعوا أمرهم على الثورة وقادهم ميسرة أحد مشاهير قوادهم ، وعلقوا المصاحف فوق أسنه الرماح وانقضوا على طنجة فاستولوا عليها وقتلوا حاكمها وقتلوا معه عدداً كبيراً من العرب ، و بلغ الخليفة هشام أمر ثورتهم فأرسل جيشاً من سورية ومصر بقيادة كلثوم بن قشير ومعه ابن أخيه بلج ، و بعد حروب طاحنة ارتد الجيش منهزما أمام البربر ، ولجأ إلى حصن سبته واستولى عليه وتحصن فيه ، وحاصره البربر ، وبذلك أصبحت ثورة البربر فى كل من شمال أفريقية والأندلس ثورة خطيرة الشأن من الوجهتين السياسية والدينية ،

ولو نشط نصارى الشمال فى ذلك الوقت ، وأجمعوا أمرهم وهاجموا الأماكن الاسلامية لاستفادوا كثيرا بسبب تفرق كلمة المسلمين

قامت هذه القلاقل ، ولكنها لم تدم طويلا بسبب يقظة الخليفة هشام بن عبد الملك ، إذ أنه حينما علم بالخطب الجلل الذى أصاب المسلمين فى سهول تور ، وبحالة البلاد المضطربة عين عبدالملك بن قطن الفهرى حاكما للأندلس ، وأمره أن يعمل على استعادة هيبة المسلمين فى تلك الأقطار

ولاية عبد الملك بن قطن الأولى :

تسلم زمام الأمر ، ونهض لاخماد الثورات نهضة قوية ، وقد استطاع أن يخمد ثورة البربر بواسطة استقدامه جند الشام من شمال أفريقية ، ثم التفت بعد ذلك الى محاربة الثوار من الفرنجة فى شمال البرانس ، وأمر حاكم أرجونة المسلم أن يقوم لغزو شرق فرنسا الجنوبى ، فنجح نجاحا عظيما فى تلك الأصقاع واستولى على مدينة أفنيون ، ثم رجع نحو الجنوب فقابله نصارى الجبال الاسبانيون ، وشتتوا شمل جيشه ، فأضاعت هذه الهزيمة ثقة قبائل اسبانيا فيه ، فعزله والى أفريقية فى الحال ، وولى مكانه أخاه عقبة بن الحجاج . وكان ذلك فى شهر رمضان عام ١١٦ هـ نوفمبر عام ٧٣٤ م

ولاية عقبة بن الحجاج :

كان قائداً لقوات الخليفة فى شمال أفريقية . وأظهر فى محاربة الثائرين من بربر أفريقية مقدرة وشجاعة ؛ فعين أميرا على بلاد الأندلس إذ عزل القواد المغلوبين ، والعمال الذين استأثروا بمال الحكومة ، وأقام فى المدن والقرى قضاة ، وعين لكل اقليم والياً ، ورتب جيشاً لحفظ الأمن فى كل اقليم ، ووضع نظاما عادلا

للخراج ، واشتهر عصره بانشاء مساجد كثيرة بجوارها مدارس ، وعرف بين الناس بالنزاهة والاستقامة ، وقد عين عبد الملك الوالى السابق عند ما ظهر له براءته مما نسب اليه أميرا على الولايات الشمالية (نفاره وأرجون) وجعل مقره مدينة بنبلونة

غزوه بلاد الفرنجة

أمره الخليفة بعد أن استقام له الحال فى أسبانيا أن يغزو الفرنجة، فجهز جيشاً وسار به من قرطبة إلى الشمال ، ووصل إلى سرقسطسة ، وعزم على جعلها مركز أعماله ، ووضع الخطة الحربية للزحف على فرنسا ، ولكن قبل أن يتم ما أراده قامت ثورة فى شمال أفريقية من جانب البربر للمرة الثانية ، فأرسل اليه أخوه يطلب النجدة ، فترك أسبانيا وأسرع إلى أفريقية ومعه قوة من الفرسان فى سنة ١١٩ هـ ٧٣٧ م

يقول بعض المؤرخين : إنه فى أثناء المدة التى أدار فيها الشئون فى أسبانيا قد غزا فرنسا عدة مرات ودفع بالفتوحات العربية إلى أبعد مما كانت عليه ، وانتشرت الجيوش الاسلامية فى أنحاء فرنسا وهددت عاصمتها ، وقد نهض شارل زعيم الفرنجة وتحالف مع غيره من النصارى وقاوم الفتح الاسلامى مقاومة عنيفة واستولى على أفنيون بعد حصار طويل وذبح حاميتها الاسلامية ، ثم حول السهل الواقع فى جنوب اللوار إلى بلقع قفر ليعرقل تقدم المسلمين إذا ما عادوا إلى غزو بلاده

عقبة فى أفريقية :

وصل إلى طنجة واتحد مع القواد المحليين ، فبددوا شمل الثوار ، وسكنت

الفتنة فى شمال أفريقية ، وقد بقى فى تلك الأقطار طويلا ليعمل بجانب أخيه على تهدئة الأحوال واستتباب الأمن والسلام

اختلت الأمور فى أسبانيا فى أثناء غيبته ! فعاد اليها سنة ١٢٢هـ. سنة ٧٤٠م ولكنه مات بعد ذلك . وقد اختلف المؤرخون فى كيفية موته فمنهم من قال : إن موته كان نتيجة لدسائس عبد الملك ، ومنهم من قال : إن الشعب الاسبانى ثار فى وجهه وطرده من اسبانيا

ولاية عبد الملك بن قطن الثانية :

أقر الخليفة هشام عبد الملك بن قطن الفهرى فى امارة الأندلس سنة ١٢٥هـ وسنة ٧٤٣ م . وقد ثار البربر للمرة الثالثة فى شمال أفريقية بقيادة خالد الزناتى وانتصروا فى المغرب الأقصى على جند الخليفة انتصارا باهرا بعد أن هزموا الأمير كلثوم بن عياض قائد الخليفة ، فلما بلغت الأخبار اخوانهم ثاروا أيضا فى وجه عبد الملك بن قطن . وأرادوا التخلص من حكم العرب ، فقسموا أنفسهم إلى ثلاث فرق ، اتجهت فرقة إلى طليطلة ، وكان يحكمها أمية بن عبد الملك وأخرى حملت على قرطبة ، وكان عاملها عبد الرحمن بن عقبة ، أما الثالثة فقد اتجهت نحو الشاطىء لتمنع وصول المدد من أفريقية إلى أسبانيا

استعانة عبد الملك بجند الشام لاخمادة الثورة :

كان بعض الجند من الشاميين والمصريين قد التجئوا الى سبته أمام انتصار البربر ، وكان يقودهم قائدان هما : ثعلبة بن سلامه ، و بلج بن بشر ، فاستنجد بهما عبد الملك ، فعبرا مع جندهما البحر ، وذهبا الى أسبانيا ، فتغلبوا

على ثورة البربر، وهكذا أنقذ السوريون الموقف ومزقوا البربر كل ممزق وأصابوا حظا عظيما ومغانم وفيرة

قتل عبد الملك :

وصفا الجو وهدأت الثورة فأراد عبد الملك أن يتخلص من حلفائه البغيضين وطلب إلى زعيمهم بلج أن يغادر الأندلس ، ولكن السوريين كانوا يودون الاقامة فى الأندلس حيث قرت أعينهم وطاب عيشهم : وهكذا تفتحت الجراح المندملة وتبين بلج سوء نوايا عبد الملك لما رفض هذا أن ينقل عسكر بلج معه بحجة أن سفنه لا تتسع للسوريين وأموالهم وعبيدهم وجواريهم ، وعرض أن ينقلهم من الجزيرة الخضراء إلى سبته لا إلى مدينة غيرها ، فبيت بلج النية على غدر عبد الملك فانتهز فرصة خلو قرطبة من جندها وانقض بجنده السوريين على قصر عبد الملك وقبض عليه ، ونصب نفسه أميرا على الأندلس فى سبتمبر ٧٤١م ، وطلب الجند من أميرهم بلج أن يقتل عبد الملك فجادلهم طويلا ليثنيهم عن عزمهم ، وأخيرا اضطر إلى الرضوخ لرأيهم ودفعه إليهم فاقتادوه إلى قنطرة قرطبة وضربوه بالسياط ضربا موجعا ثم أغمدوا سيوفهم فى جسمه وصلبوه على القنطره إلى جانب خنزير وكلب

حال أسبانيا بعد قتل عبد الملك :

واستثارت هذه الشناعة وهذا التمثيل الفظيع بزعيم قد تقدمت به السنون كامن السخط فى نفوس عرب الجزيرة وهم الطائفة الأولى التى استقرت بالأندلس فنادوا بالحرب وأمروا عليهم ولدى عبد الملك — أمية وقطن — وانضم إليهم البربر انتقاما لأنفسهم ، وجاء إليهم حلفاء آخرون منهم عبد الرحمن بن حبيب الفهرى من بنى لخم حاكم أفريقية ، وعبد الرحمن بن علقمة حاكم تاريونه ،

وبلغ عدد المتحالفين ما بين أربعين ومائة ألف ، أما جيش بلج فلم يزد عن أثنى عشر ألفا ، وانضم إليه عدد من حراث الأرض المسيحيين ، وانتظر بلج أعداءه بالقرب من قرية صغيرة اختار موقفه عندها ، فأصبح السيف هو الحكم الفاصل بين المدنيين والسوريين فى التسيطر على الأندلس

ولما التقى الجمعان فى أغسطس ٧٤٢ م دافع السوريون عن أنفسهم دفاع الأبطال وصدوا أعداءهم ، ولكن عبد الرحمن بن علقمة حمل على بلج وقصده بالذات وطعنه فى رأسه طعنات عدة ، إلا أن فرسان قنسرين صدوا هجماته وأوقعوا الرعب فى قلوب الحلفاء فولوا الأدبار بعد أن جندل منهم عشرة آلاف ، ودخل السوريون قرطبة دخول الظافرين ، ولكن عكر عليهم صفو هنائهم موت بلج متأثرا بجراحه ، فتولى القيادة يمنى اسمه ثعلبة ، فأطلق يد جنده فى قتل أعدائهم المدينين وأباح لهم السلب والنهب وبهذا عظم أمره فى أعينهم — وبدأ ثعلبة قيادته بمطلع غير موفق إذ هاجم العرب المدينين وحلفاءهم البربر المتحصنين فى ماردة ، فهزموه هزيمة منكرة تحرج بعدها موقفه ، ولكن ساعده الحظ بأن جاء يوم عيد وفيه نسى الناس أمر ثعلبة واحتفل القوم بعيدهم وتفرق الجند عائدين إلى أهلهم ، فأخذهم ثعلبة على غرة وهاجمهم وشتت شملهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر ألفا من الأسرى وسبى نساء أعدائه وأطفالهم فى مايو ٧٤٣ م وساق ثعلبة النساء والأطفال والأسرى إلى الأسواق حيث بيعوا بأبخس الأثمان أذلالا لأعدائه ، حتى لقد بيع رجل من المدينة بكلب وآخر بعنز . ولم يحدث قط منذ موقعة الحرة أن صب السوريون إهاناتهم على أهل المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار كما فعلوا هذه المرة

فى هذا الموقف العصيب فكر قوم من عقلاء الطرفين فى وضع حد لهذه

الفظائع الناجمة عن الحرب الداخلية التى مزقت البلاد شر ممزق خشية أن ينتهز المسيحيون من أهل الشمال سانح الفرصة فى شن غاراتهم على المسلمين ، فأرسلوا الى حنظلة الكلبى والى أفريقية يسألونه فى ارسال حاكم قدير الى الأندلس من قبله يقوى على اعادة الأمن الى نصابه ، فأرسل اليهم حنظلة أبا الخطار الكلبى فوصل يوم بيع الأسرى من المدنيين فكان أول عمله أن أطلق سراحهم

ولاية أبى الخطار:

فى سنة ١٢٥هـ تسلم أبو الخطار زمام السلطة ، فوطد دعائم النظام فى الجزيرة بالسياسة والحزم أكثر من العنف والقوة ، الى أن دخلت كلها فى دائرة سلطانه واعترف أهلها بالسيادة العامة ، ثم أخذ يقسم الأراضى بين الجند الذين هرعوا الى اسبانيا من اليمن والشام ومصر والمغرب ، لكنه لم يدم استتباب الأمن فى الجزيرة زمنا طويلا لأن أبا الخطار عند قسمته الأرض بين القبائل مال الى جانب اليمنيين ، والحميريين ، فحنق من ذلك المضريون ، وثاروا فى وجهه ، وقاد الثورة الصميل بن حاتم بن شمر

الصميل بن حاتم بن شمر بن ذى الجوشن :

ظهر هذا الزعيم فى الأندلس وقت أن حكمها أبو الخطار ، وكان شيخ بنى قيس وجده هو الذى قاد جند يزيد فى قتال الحسين بن على وهو الذى أصر على قتل الحسين فى كربلاء واحتز رأسه بيده وحمله الى يزيد ، ولما ثأر الخوارج التوابون لبنى على قتل المختار بن أبى عبيد الشيعى شمر ورمى جثته للكلاب

وعندئذ فر حاتم بن شمر الى قنسرين حتى اذا جهز هشام جيشه لأخضاع البربر فى شمال أفريقيه انضم اليه الصميل بن حاتم ، وكان فى صحبة بلج عند مسيره

إلى الأندلس بطلب من عبد الملك بن قطن الفهرى ، وأصبحت له منزلة بين بنى قيس واعتبروه زعيما لهم

وسبب الثورة المباشر أن حدث ذات يوم أن تقاضى أمامه شخصان أحدهما من كنانة والآخر من كلاب ، ومع أن الحق كان فى جانب الأول إلا أن أبا الخطار انحاز الى الكلبى

وشكى القيسى إلى الصميل فذهب لفوره إلى أبى الخطار فى قصره يناقشه الحساب ، ولكن الأمير طرده من قصره ، واستعمل عبيد الأمير العنف فى إخراجه حتى انهدلت عمامته ، فلما كان فى طريقه لقيه شخص فقال له ما أصاب عمامة ابن جوشن فكان جوابه :

سأنظر إذا كان حولى قوم يصلحونها ، ولم يكن الصميل بالذى يستهان به ، فلم يكد يصل إلى بيته حتى دعا قومه للمشورة ، فقالوا له بين لنا رأيك وستجدنا إن شاء الله صابرين ولا نعصى لك أمراً ، فقال لا تنزعن الملك من يده ، ثم سعى فى التحالف مع بنى لخم وأميرهم يوسف ، وبنى خزيمة وأميرهم ذؤابه ، ونجح فى استمالة أبى عطاء زعيم غطفان اليه ، ولما انتظم شملهم جمعوا جموعهم فى مقاطعة شدونة فى ابريل ٧٤٥ م وأمروا عليهم ذؤابة

ولما علم أبو الخطار بخروجهم سار بنفسه اليهم ومعه يمانيون فى جيشه ، وقابل ذؤابة والصميل عدوهما المشترك عند نهر بقة (جواديليت) فتهاون اليمانيون فى مقاتلة بنى قومهم من لخم وجذيمة ، ثم عمدوا إلى الفرار فتولت الضربات على جيش أبى الخطار من بنى كلب

وفر هو منهزماً مع فلول جيشه ، وجد أعداؤه فى مطاردته حتى وقع فى أيديهم

فشدوا وثاقه وساقوه أسيرا ذليلا إلى قرطبه ودخل ذؤابه (ثوابة بن سلامه) قرطبة دخول الظافر وجلس على كرسى أمارة الأندلس .

ولم يستكن بنو كلب للهزيمة فقام أحدهم : عبد الرحمن بن نعيم وانقض على قرطبة فى ليلة مظلمة ومعه أربعون فارساً ومائتا راجل ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، وهاجم حراس أبى الخطار فشتتهم وأطلق سراح زعيمه وقاده إلى باجه حيث يقيم بنو كلب

ولما رأى أبو الخطار نفسه حرا طليقا جمع شرزمة من اليمانين وزحف على قرطبة ، ولكن تصدى له الصميل وذؤابه وأغرى الصميل اليمانيين أن يتخاذلوا وينسحبوا حقنا للدماء ، وللمرة الثانية قلب اليمانيون لأبى الخطار ظهر المجن

ولما توفى ذؤابة بعد انقضاء عام على تلك الحوادث فى يناير ٧٤٧ م سادت الفوضى بلاد الأندلس مرة أخرى ، إذ تنازع أمارتها عمرو بن ذؤابة وابن حريث ولكن الصميل رشح للامارة يوسف بن عبد الرحمن الفهرى

ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى :

وقد أراد من اختياره إياه أن يكون آلة فى يده يديرها كيف يشاء ويحكم هو البلاد من وراء ستار وفق هواه ومشيئته

ولم ير الصميل أن يحكم الاندلس جهرا وعلانية لعلمه ان بنى قيس أضعف من أن ينتصر بهم على مناوئية من بقية القبائل العربية

وكان يوسف الفهرى من سلالة عقبة بن نافع قد تقدمت به السنون إذ بلغ السابعة والخمسين من عمره .

ولما رأى الصميل أنه أصبح فى مقدوره جمع كلمة كل القبائل من معدّ لم

يخش إظهارحقيقة كراهيته للقحطانيين ، وحدثته نفسه أن يتخلص منهم فانقلب على جذيمة وسلب زعيمهم ابن حريث ما كان يحكم من المدن فتحالف هذا مع أبى الخطار ، واتفقا على أن يعملا معا وتكون الامارة لابن حريث وانضم اليهما بنو كلب وجند اليمن عامة من كل حدب وصوب ، كما انضم بنو معد إلى يوسف والصميل والتفوا حولهما ، فكان الجار ينعزل عن جاره والصديق يفارق صديقه ، و يعتذر كل للآخر عما قد يكون من أمرهما إذا تلاقيا فى الميدان

ولتعادل القوتين كانت الحرب صراعا طويلا انحصرت فى جنوب الاندلس اشترك فيها زهرة فرسان وأبطال الفريقين وأشرافهم ، ودارت الحرب على شاطىء الوادى الكبير على الضفة المقابلة لقرطبة ، و بحث كل عن خصمه بعد صلاة الصبح ، فكانت مناجزة رجل لرجل ، وأرخى الليل سدوله ولم يكتب لفريق النصر على خصمه ، وعندئذ لحق الفريقين الاعياء وأجهدهما النصب بعد إذ تكسرت السيوف والقسى والنصال ، فأشار الصميل على يوسف بدعوة رعاع قرطبة فحضر منهم ٤٠٠ معظمهم أعزل من السلاح ومع قليل منهم سيوف ورماح ، ومع القصابين من بينهم مدى وسكاكين ، وعند وصولهم انقضوا على أصحاب ابن حريث المنهوكى القوى لما أبلوه طيلة اليوم ، وهزموهم ووقع أبو الخطار فى أيديهم أسيرا فلما أرادوا قتله غاظه أن يهرب شريكه ابن حريث و ينجو بحياته فدل الاعداء عليه فقادوه من مخبئه وضربوا عنقيهما معا

ولما تم الأمر ليوسف بن عبد الرحمن الفهرى رأى أن يتخلص من الصميل وتدخله فى شئون الحكم فعينه حاكما على سرقسطه ، وأطاع الصميل الأمر ورحل اليها عام ٧٥٠ م

ولما عم القحط البلاد فى تلك السنة ، ومرت خمس سنين عجاف هلك الناس

جوعا . عندئذ تجلت فى الصميل شمائله العربية فنسى عداءه وغيظه وعصبيته وفرق الأموال ، ووزع الخبز وأطعم الجائع وأهدى العبيد ، وأغاث كل مسكين لافرق فى ذلك بين قومه وخصومهم

ولكن ذلك لم يكسبه القلوب ، ولم يستطع الصميل أن يؤلف به بين القبائل المتناحرة ، ولو انه أثمر ثمرته المرجوة لكفى الأندلس شر الفتن والحروب الداخلية وماتجره من كوارث ونكبات ، ولكن انى للاحسان أن ينسى من ناله ماله من ثأر عند من أحسن اليه . لهذا لم تكن تلك المكارم العدنانية لتجدى إلا هدنة وقتية فما كان اليمانيون بالذين يرضخون لسيادة العدنانيين وهم الذين دوخوا الأندلس فى اعتقادهم ، لهذا قطعوا العزم على أن يستردوا سؤددهم القديم فى أول بادرة تسنح لهم . كذلك استاء القرشيون لما رأوا من اعتلاء أحد بنى فهر الامارة

ظهور عامر وحباب :

وتحالف القرشيون واليمانيون . وكان ليوسف أمير قرطبه قائد قرشى يدعى عامرا كان له الفضل فى اخضاع المسيحيين فى الامارات الشمالية ، ولكن يوسف عزله من القيادة فأحفظه ما لقى من سوء معاملة ففاوض اليمانيين فى محاربة يوسف وخلعه

وأشار الصميل على يوسف باغتيال عامر ، ولكن عامرا علم بالنية المبيتة فهرب إلى الشمال حيث جمع جموع اليمانيين بالقرب من سرقسطة ؛ وما لبث أن ظهر قرشى آخر يدعى حباب وانضم لعامر عند سرقسطة ، وتقاطرت جموع اليمانيين كافة من جميع جهات الاندلس و بلاد البربر ، وزعم عامر وحباب انهما تلقيا أمرا بمقاتلة الصميل و يوسف عن الخليفة العباسى

وهزم الصميل فى هذه المرة وحوصر فى سرقسطة ، على أن عاملا لم يكن فى الحسبان تدخل فى انقاذه ، وذلك أن الامويين فى بلنسية وكذا بنى قيس وكلاب ومحارب وسليم و بكر بن وائل و بنى على ساروا لانقاذه ، ولما رآهم المحاصرون من بنى معد تفرقوا وتخلوا عن الحصار خشية أن يحاط بهم من كل جانب ، وهكذا نجا الصميل فدخل بنو قيس وحلفاؤهم سرقسطة وأجزل الصميل مكافأتهم على حسن صنيعهم

وظل يوسف حاكما على البلاد نحو ١٠ سنوات فى أثنائها حدثت حوادث جسام فى المشرق : إذ سقطت الدولة الأموية وحلت محلها الدولة العباسية ، وكان لهذا الانتقال أثره فى أسبانيا ، إذ تجدد الشقاق بين القبائل العربية ، ونشط كل من نصارى الفرنجة ، ونصارى شمال أسبانيا ، وأغاروا على أملاك المسلمين

واستولى الفرنجة على أرجونة سنة ٧٥٧م وذبحوا أهلها من المسلمين ، وخربوا مساجدها ودمروا دورها ومعاهدها

وكذلك استظهر ثوار المقاطعات الشمالية فى مقاطعة ليون ، وطردوا المسلمين من المعاقل الجبلية ، واتخذوها مقرا لهم لتشييد مملكة قوية ، وظلت أسبانيا فى اضطرابات فظيعة ، كما ظل يوسف يكافح الثورات حتى سنة ١٣٨هـ ، سنة ٧٥٧م حيث تمكن أحد الامويين الذين نجوا من مطاردة العباسيين وهو عبد الرحمن الداخل من دخول أسبانيا واستطاع أن ينتزع الامارة من يوسف ، وأسس فيها حكما أمويا مستقلا . و بهذا انقرضت امارة الامراء ومدتها من دخول طارق نحو ٤٥ سنة

الفصل الرابع

اسبانيا النصرانية بعد الفتح العربى

فتح العرب أسبانيا فى أواخر القرن الأول من الهجرة ، وفى أوائل القرن الثامن الميلادى كما مر بنا ، وخضع أهلها لحكم العرب وعاشوا فى كنفه متمتعين بحريتهم السياسية والدينية ، وقد بهر الاسلام الكثيرين منهم فاعتنقوه ، وصاهروا الغزاة من العرب والبربر فأصبحوا بفضل نعمة الاسلام يقفون على قدم المساواة مع الفتاح ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وتمتع الذين آثروا البقاء على دينهم من نصارى ويهود بحرية دينية واقتصادية لم تألفها تلك القرون المظلمة التى عاصرت الفتح الاسلامى لبلاد الاندلس . أما المتمنتون من نصارى الاسبان والقوط الذين فروا أمام موجة الفتح إلى شمالى أسبانيا وشماليها الغربى فان العرب أهملوا أمرهم فى ذلك الوقت استصغارا لشأنهم . ونشطوا لمحاربة الفرنجة والتوغل فى أرض جنوب فرنسا ، وكان موسى بن نصير قد فكر فى ابادتهم ، وسحق عدوانهم واقتحام معاقلهم الجبلية ، ولكنه لم يفعل بسبب استدعائه قبل تنفيذ مشروعه

وقف تيار الفتح العربى فى فرنسا بعد موقعة تور ، وعصفت نيران الثورة فى أسبانيا العربية ، واشتغل ولاتها بقمع الفتن الداخلية ، فانتهز هؤلاء النصارى تلك الفرص وعملوا على توطيد أقدامهم وتوسيع رقعة أملاكهم فى الأقاليم الجبلية فى الشمال والغرب ، وذلك بفضل الجهود الجبارة التى بذلها زعيم ظهر من بينهم يسمى بلايو . يقول هـ . ادوارد واتس المؤرخ الشهير « فر نفر من القوط ومعهم فريق من الاسبان الوطنيين الذين تحلوا بصفة الوطنية الحقة المتعصبين لدينهم إلى أقاليم أستورقة الجبلية ،

تلك الأقاليم التى كانت معقلا للوطنيين الاسبان من قديم ، وفى أحضانها ، وعلى هضاب جبالها وفى كهوفها ومغاورها امتزج القوط بالأسبان وكونوا عنصرا واحدا واختاروا بلايو زعيما لهم » .

وفى تلك البقاع تكونت أمارتهم يحدها البحر من الشمال ، والجبال من الجنوب ، وفى سنة ٧١٨ م يذكر المورخون أن بلايو انتصر على المسلمين فى موقعة دموية تسمى كوفادونجا « Covadonga » ويقدس هؤلاء المؤرخون من الاسبان اسم هذه الموقعة . مثلهم فى ذلك مثل الاغريق فى تقديسهم لموقعة « مارثون » إذ بانتصار بلايو المزعوم أنقذ إمارته الفتية من الدمار على أيدى العرب ، كما أنقذت مرثون بلاد الاغريق من الدماء على أيدى الفرس

بعث هذا الانتصار روح الأمل والمقاومة فى نفوس الاسبان وعلموا أن الاتحاد والاقدام لهما ثمرتهما ، وأصبحت تلك المقاطعة من ذلك العهد مأوى يأوى إليه الحاقدون على حكم العرب والخارجون على طاعتهم ، و بعد كفاح طويل مات بلايو ٧٣٧ م ، ورفعه المورخون من الاسبان إلى مقام القديسين والأولياء — وخلفه فى زعامته ابنه فافيلا ، ولما قتل بعد ذلك بعامين جلس على عرش الأمارة صهر له يسمى الفونسو الكاثوليكى إذا كان أليق النبلاء لشغل ذلك المنصب الخطير الشأن ، وقد استطاع بحزمه وحسن قيادته أن يوسع رقعة ملكه إذ ضم لأمارته معظم مقاطعة جليقية (البرتغال الحالية) ، وامتدت حدوده حتى وصلت نهر دويره ، وانتزع من العرب ليون وسلمنقة وزامورة واستورقة وغيرها من المدن التى تقع نحو الشمال الشرقى حتى وصل إلى مقاطعة قشتالة ، واستمر فى فتوحاته مسترداً البلاد والأقاليم من سيطرة العرب حتى قيل إنه استرد نحو ربع أسبانيا . وقد ساعده على ذلك اشتغال المسلمين إذ ذاك بحروبهم الداخلية. وتنازعهم الحكم

فيما بينهم ، ولكن العرب ما لبثوا أن سووا مشاكلهم واستقامت الأمور فى أسبانيا العربية عند ما أسس عبد الرحمن الداخل الأموى إمارة أموية عربية فى أسبانيا وأصبحت تلك المدن والأقاليم ميدانا للقتال بين المسلمين ونصارى الاسبان طورا يستردها المسلمون وطورا يستولى عليها النصارى ، وفقدت أهميتها الاقتصادية والعمرانية بسبب تلك الحروب المتكررة ، و بسبب انتقال ملكيتها من يد عربية اسلامية إلى يد اسبانية نصرانية

مات الفونسو الأول فى سنه ٧٥٧ م ، وخلفه على العرش ابنه فرويلا وتبعه كثيرون من أبنائه وأصهاره يحكمون اسبانيا النصرانية التى كانت تارة تصمد للعرب فى ميادين القتال وتحافظ على استقلالها ، وتارة تضعف أمامهم وتقر لهم بالتبعية وتدفع الجزية — وظلت سائرة على ذلك المنوال حتى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى عند ما جلس على عرشها الفونسو الثالث الذى يعده المؤرخون الموسس الثانى والحقيقى لاسانيا النصرانية. إذ فى عهده (٨٦٦ — ٩١٠) م أصبح الاسبان أسياد الاقاليم الجبلية يحكمون على مقاطعات استورقه ، و بسكاى وجليقية وشمال البرتغال ومعظم بلاد النفار ، وقاتلوا المسلمين فى اثناء تلك المدة قتالا عنيفا مما سنفصله ونحن نتتبع الاخبار السياسية والحربية لاسبانيا العربية الاسلامية